المحاضرة الثانية

نشأة اللغة

من الحقائق الأساسية في الدراسات المتعلقة باللغة، أن اللغة هي التي أعانت الإنسان على أن يكون اجتماعية، فهي ثمرة اجتماعه، وسبب اجتماعه في آن واحد، وما من مجتمع متجانس إلا وكانت لغته الخاصة هي العروة الوثقى بين عناصره وأفراده، فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية، فكيف نشأت اللغة إذن؟ وما العوامل التي أدت إلى ظهورها في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات؟ وما الصورة التي ظهرت بها هذه الأصوات؟

يجيب عن هذا د. على عبد الواحد وافى (01) بأن للغة نشأتين نشأة حينما أخذ الإنسان بلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع وكلمات متميزة للتعبير عما يجول بخاطره من معان، وما يحسه من مدركات. أما النشأة الثانية فترتبط بالطفل حين يشرع يقلد أبويه والمحيطين به فيما يلفظونه من مفردات وعبارات، فتنتقل إليه لغتهم عن هذا الطريق.

فلولا اجتماع الأفراد، وحاجاتهم إلى التعاون والتفاهم، وتبادل الأفكار والتعبير عما يجول بالخواطر من معان ومدركات ما وجدت لغة.

وقد طرحت عدة نظريات حول نشأة اللغة الاسبانية مثلا، منها(02)

الأولى: تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام الهى – هبط على الإنسان فعلمه النطق، وأسماء الأشياء، وقد ذهب إلى هذا الرأي الفيلسوف اليوناني هيراكليت ، وفي العصور الوسطى ابن فارس في كتابه الصاحبى، وحديثا "الأب لامى" في كتابه فن الكلام، ودويولاند في كتابه التشريع القديم.

الثانية تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجال ألفاظها ارتجالا. ومن ذهب إلى هذا الفيلسوف ديموكريب، وكثير من باحثي فقه اللغة في العصور الوسطى، وحديثا آدم سميث، ودجلر ستيورات.

الثالثة: يرجع الفضل في نشأة اللغة إلى غريزة خاصة، زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، وكانت هذه الغريزة تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوى بكلمة خاصة به، وهذه الغريزة كانت متحدة بين جميع الأفراد في طبيعتها، ووظائفها ، وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات و تشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى، وممن ذهب إلى هذا مكس مولر Max Miller والعلامة الفرنسي رينان Renan

الرابعة: يرى أصحابها أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية ،التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة الأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت الضرب والقطع والكسر..) وسارت في سبيل الرقي شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الانسانية و تقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية، وتعدد حاجات الإنسان وينظر د. وافي إلى هذه النظريات فيقرر أن النظرية القائمة على الالهام الالهي التعليم الإنسان النطق لا يقدم أصحابها دليلا عقليا يعتد به ، وأدلتهم النقلية.(03)

بعضها يحتمل التأويل، وبعضها يكاد يكون دليلا عليهم لا لهم أما النظرية التي ترجع النشأة إلى التواضع والاتفاق والارتجال فإن د. وافى يرى أنها لا سند عقلية ولا نقلية ولا تاريخية لها، بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة للنظم الاجتماعية، إذ لا ترتجل هذه النظم بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها، والتواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون، وبالتالي فإن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل.

أما النظرية الثالثة التي ترجع نشأة اللغة إلى وجود غريزة خاصة بها فإنها على حد قول د. وافي – لم تحل شيئا من المشكلة الخاصة بنشأة اللغة، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً وهي مشكلة الغريزة الكلامية. ثم أن ما تقره يعتبر من بعض الوجوه تفسير الشيء بنفسه.

وأما النظرية الرابعة القائلة بنشأة اللغة من الأصوات الطبيعية، وارتقائها بارتقاء الإنسان والحياة الإجتماعية وتعدد حاجاته، فهي كما يراها د. واقي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور، وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات والظواهر الطبيعية الاجتماعية.

أيا ما كان الأمر في تقييم هذه النظريات فإنما يعنينا في طرحها، أنها قدمت محاولات للتأسيس لفكرة نشأة اللغة، التي هي أداة الإنسان في التعبير عما يجول بخاطره من معان وما يحسه من مدركات ، وهذا التعبير الإنساني كما يراه اللغويون له طرق كثيرة يرجع أهمها إلى قسمين: أولهما: التعبير الطبيعي عن الانفعالات ويشمل جميع الأمور النظرية غير المقصودة التي تتخذها مختلف الانفعالات البشرية، وهذه التعبيرات تنقسم بدورها من حيث حاسة إدراكها إلى تعبيرات بصرية، وتعبيرات سمعية، ثانيهما: التعبير الوعي الإرادي،ويشمل جميع الوسائل الإرادية التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني التي يود وقوف غيره عليها ، وينقسم هذا النوع أيضا إلى تعبير إرادى بصرى يشمل جميع الإشاراته الحية التي تستخدم بقصد الدلالة وتعبيرات إرادية سمعية التي تعمل عن طريق حاسة السمع، وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات، وهذا النوع كما يشير د. وافي بأنه مكتسب لا فطري، وإرادي اي يصدر عن قصد ، وهو يتمثل في أصوات مركبة ذات مقاطع تتألف منها كلمات وجمل لا من أصوات مبهمة، وهو يخبر عن معان تجول في الذهن لا عن انفعالات .

مراجع المحاضرة :

1- علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ، دار نهضة مصر للطبع و النشر ،ط9،القاهرة ،ص97
2- نفس المرجع ، ص 99
3- رمضان عبد التواب ، التطور اللغوي –مظاهره و علله و قوانينه، مكتبة الخاتمي ، القاهرة ،ص5